وقتل أيضاً صاحِبُنا الشيخ الفاضل ضياءُ الدِّين محمد بن أبي الحجَّاج[١] ، صاحب ديوان الجيش ـ رحمه الله ـ خَتَمَ الله له بالحُسْنى؛ وهي الشهادة، على ما كان فيه من فَضْلٍ ودينٍ وتواضع، ولم ألق أحداً يعرف عِلْم التَّاريخ مثله، وحصَّل كُتُباً عظيمة، وكانت له هِمَّةٌ عظيمة في تحصيل الكتب والفوائد والفضائل إلى آخر عمره ـ رحمه الله ـ قَدِمَ دمشق مرَّاتٍ في زمان شبيبته وحياة والده، وفي زمان شيخوخته، وكان قدم بغداد، وسمع العلامة تاج الدين الكِنْدي، وأبا حفص عمر بن طَبَرْزد، والقاضي أبا القاسم الحَرَسْتَاني وغيرهم[٢]، وأنشد لنفسه بدمشق ولغيره كذا وكذا[٢].

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين وست مئة

ففي ثاني المحرَّم ـ وهو يوم الأربعاء ـ كَسَرَ السُّلْطانُ المُعَظَّمُ بنُ الصَّالح بن الكامل الفرَنج ـ الذين كانوا استولوا على دمياط وحاصروه بالمنصورة ـ

= للذهبي: ٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥، الوافي بالوفيات: ٢٩/ ٣١٧ ـ ٣٢١، فوات الوفيات: ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣٢، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٩٧، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٧هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦٣، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وقال سبط ابن الجوزي: كان عاقلاً جواداً، وزيراً، خليقاً بالملك، محبوباً إلى الناس، كان له يوم مات ست وستون سنة.

قلت: وانظر ترجمة والده ص ٣٣٥ من الجزء الأول.

(١) له ترجمة في الوافي بالوفيات: ٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩، وقد سلف خبر نزوله بالمدرسة العادلية بدمشق ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ب)، وفي (ك) و(ع) و(س): وأنشدني لنفسه ولغيره كذا وكذا، ينظر في الأوراق المفرقة.

قال إبراهيم عفا الله عنه: قوله: ينظر في الأوراق المفرقة، إما أن يكون من أبي شامة، وقد كان يزيد في كتابه «المذيل» أوراقاً طيارة، أملاً أن ينزّلها في مواضعها في أثناء تبييضه له، وقد مات ـ رحمه الله ـ قبل أن يتمكن من تبييضه، أو من قول الناسخ، وقد رأى الأوراق المفرقة، في الكتاب، فلم يكلف نفسه عناء البحث عنها، ويبدو أن قسماً من هذه الأوراق المفرقة قد ضاع، والله أعلم.

كسرةً عظيمة قُتِلَ فيها وأُسر قريبٌ من ثلاثين ألفاً، وأُسر ملك افرنسيس[1] وأخوه، وجماعةٌ من خواصّه كانوا اختفوا في مُنْيَة عبد الله من ناحية شِرْمَسَاح، فأُخذوا.

وفي سادس عشر محرَّم وصل إلى دمشق غفَّارة ملك افرنسيس المأسور، أرسلها السُّلْطان المعظَّم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدِّين موسى بن يغمور، فَلَبِسَها، ورأيتُها عليه، وهي اسكرلاط أحمر تحته فرو سنجاب، وفيها بكلة[2] ذهب، فنظم صاحِبُنا الفاضل الزَّاهد نجمُ الدِّين محمد بن إسرائيل مُقَطَّعاتٍ ثلاثاً ارتجالاً، كلُّ مُقَطَّعة بيتين في مدح السلطان والأمير، إحداها:

إنَّ غـفَّـارَةَ الـفِـرِنْـس الـتـي جـا ... ءَتْ حِـبَـاءً لـسـيِّـدِ الأُمـراءِ
كبياضِ القِرْطاس في اللَّوْنِ لكنْ ... صَبَغَتْهَا سيوفُنا بدماءِ

والثانية مخاطبة للأمير، فقال:

يـا واحـدَ الـعَـصْـرِ الـذي لـم يَـزَلْ ... يـحـوزُ فـي نـيـل الـمَـعَـالِـي الـمَـدَى
لا زلـتَ فـي عِـزٍّ وفـي رِفْـعَـةٍ ... تَـلْـبَـسُ أسـلابَ مـلـوكِ الـعِـدَى

والثَّالثة كتبها الأمير مقدمة كتابٍ إلى السلطان:

أسـيِّـدَ أمـلاكِ الـزَّمـانِ بـأسْـرِهِـمْ ... تَـنَـجَّـزْتَ مـن نَـصْـرِ الإلـه وعُـودَهُ
فلا زالَ مولانا يُبيح حِمَى العِدَى ... ويُلْبِسُ أسلابَ الملوكِ عَبِيْدَهُ

وفي العشرين من محرَّم دخل النَّاسُ كنيسةَ مريم بفرح وسرور، ومعهم مغاني ومطربون، فرحاً بما جرى، وهمُّوا بهدم الكنيسة.

وبلغني أنَّ النَّصارى ببَعْلَبَكَّ سوَّدوا وسخَّموا وجوه الصُّور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الفرنج، فعلم بهم الوالي، فَجَناهم جِنَايةً شديدة، وأمر اليهود بصَفْعهم وضَرْبهم وإهانتهم.

---

(١) هو لويس التاسع، وانظر ذيل مرآة الزمان ٢/ ١٩٩ ـ ٢١٤.

(٢) ما يزال العامة في الشام يستخدمونها بمعنى المشبك الذي يوضع في صدر الملابس للتزيين.

obeikandi.com

١٨٥ وفي صفر سنة ثمانٍ وأربعين وست مئة وصل الخبر بقَتْل السُّلْطان المعظَّم تورانشاه بن الصَّالح أيوب بن الكامل بن العادل[١] في دِهْلِيز الخيمة بعد السِّماط، جُرِحَ في يده؛ فانهزم، ودخل بُرْجَ خشب، فأُحرق، فرمى بنفسه منه إلى ناحية النيل، فأُدرك، وقُطِّع، ثمَّ بُقِرَ[٢] بقرية فارَسْكُور، وكان ذلك من غِلْمان أبيه البحرية، واستبدُّوا بالأمر، وأمَّروا عليهم أُمَّ ولدٍ لأبيه الصَّالح.

وأخبرني مَنْ شاهد ذلك أنَّه ضُرِبَ أولاً، فتلقَّى الضَّرْبة بالسيف، فَجُرِحَتْ يده، واختبَطَ النَّاس، وذلك عقيب فراغهم من الأكل على السِّماط، فأظهر أنَّ ذلك كان من بعض الملحدة الحشيشية، ثم أشار بعضُهم على الباقين بإتمام الأمر فيه، وقال: بعد جَرْح الحيَّة لا ينبغي إلا قتلها. فركبوا، وتسلَّحوا، وأحاطوا بخيمته وبُرْجه الخشب، لأنه كان في الصحراء نازلاً بإزاء الفرنج ـ خذلهم الله ـ فدخل البُرْج خوفاً منهم، فأمروا زرَّاقاً بإحراق البرج، فامتنع، فَضُرِبَتْ عُنقُه، ثم أمروا زرَّاقاً آخر، فرمى البُرْجَ بنفطٍ، فأحرقه، فخرج من بابه، وناشَدَهم الله في الكَفِّ عنه، والإقلاع عما نَقَموا عليه، وطلب تخليةَ سبيله، فلم يُجَبْ إلى شيء من ذلك، فدخل في البحر إلى أن وَصَل الماءُ إلى حَلْقه، فرجع، فضربه البندقداري بالسيف، فوقع في الماء، فضربه بالسيف ضربةً

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات ٦٤٨هـ)، الحوادث الجامعة: ١٢١ ـ ١٢٢، كنز الدرر: ٧/ ٣٨١ ـ ٣٨٣، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٨١ ـ ١٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٩٣ ـ ١٩٦، العبر للذهبي: ٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، الوافي بالوفيات: ١٠/ ٤٤٥ ـ ٤٤٨، فوات الوفيات: ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥، عيون التواريخ: ٢٠/ ٤٣ ـ ٤٥، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٦، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٨هـ)، نزهة الأنام: ١٩٣ ـ ١٩٤، السلوك للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٣٥١ ـ ٣٦١، عقد الجمان (حوادث ٦٤٨هـ)، شفاء القلوب: ٤٢٦ ـ ٤٣١، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦٤ ـ ٣٧٢، حسن المحاضرة: ٢/ ٣٥ ـ ٣٦، شذرات الذهب: ٥/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) قوله: بُقِرَ، بيض لها في الأصل، والمثبت من (ب)، ولم يلتفت إلى هذا البياض ناسخ (ك) و(ع) و(س) فوصل الكلام.

واحدة على عاتقه، فنزل السيف من تحت إبْط اليد الأخرى، فوقع قطعتين، وكان قتله في أواخر محرَّم[١] يوم الاثنين، فبقي مكانه ذلك اليوم والغد إلى ليلة الأربعاء، ونقل إلى الجانب الآخر من النيل مجروراً بطرف ثوبه في الماء، فحفر له في ذلك الرمل، ودفن، وتغيب قبرُه[١]. فانظر إلى هاتين الواقعتين العظيمتين الغريبتين[٢] كيف اتفقتا في شهرٍ واحد، إحداهما في أوله؛ وهي كسرة الفرنج الكسرة العظمى التي استأصلتهم، والثانية في آخره: قتل السُّلطان على هذا الوجه الشنيع.

وأخبرني السيف بن الشهاب جَلْدك ـ والي القاهرة كان أبوه ـ: أنه لما قُتِلَ رمي في جُرْفٍ على حافَةِ البحر، ورُدِمَ عليه التُّراب، فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كَشَفَه الماءُ، فَنُقِلَ من ثَمَّ إلى الجانب الآخر من البحر، فدُفِنَ هناك.

وحكي لي في صفة نقله عجباً؛ وهو أنَّه جُرَّ في الماء بصنَّارةٍ، والجارُّ له راكبٌ في مركب والصِّنَّارة بيده يجرُّه في الماء كأنه حوتٌ إلى أن عَدَّى به إلى الجانب الآخر، فدفنه هناك، فكان قتله والنَّاس في غَفْلة وبَهْتةٍ من أمرهم، وعُوجل فلم يجد ناصراً.

ولقد حكى لي المذكور أنه بقي يستغيث من أعلى البُرْج برسولِ الخليفة: يا أبي[٣] عِزَّ الدِّين أدركني. وتكرَّر ذلك، فركب في أمره، وكلَّمهم فيه، فردُّوه، وخوَّفوه من القَتْل، وإخراقُ حُرْمة الخلافة، فرجع[٤].

ولما فُرِغَ مِنْ قتله نادوا: لا بأس، النَّاسُ على ما هم عليه، إنما كانت حاجة فقضيناها. واستبدُّوا بالأمر[٤]، وأمَّروا عليهم عِزَّ الدين أَيْبَك التركماني

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في الأصل و(ب)، والمثبت من (ك) و(ع) و(س).

(٢) في (ب) القريبتين.

(٣) كذا، على اللهجة العامية.

(٤ ـ ٤) ما بينهما ليس في (ب).

الملقَّب الآن بالملك المُعِزّ صاحب الدِّيار المِصْرية، وهو واحدٌ منهم، ورجعوا
إلى القاهرة، وكاتبوا أمراء الشَّام باتِّباعهم، فَجَرَتْ في ذلك فصولٌ استقرَّت ١٨٦
آخراً على أن قَدِمَتِ العساكرُ الحلبية بمن معهم من الملوك بني أيوب مع سُلْطانهم الملك النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن العزيز بن الظَّاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ رحمه الله ـ لأخذ البلاد، والانتقام ممن أفسد هذا الأمر وَقَتَلَ السُّلْطان، فنزلوا على الغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر.

وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر دخل العَسْكر الحلبي مدينة دمشق ضحوة النَّهار.

وفي يوم الأربعاء عاشر الشَّهر دخل السُّلْطان قلعة دمشق، وأَمِنَ النَّاس، وزالَ عنهم الباس؛ وهو الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاتح بيت المقدس، ثم أرسل إلى القلاع المجاورة لها، فَسُلِّمت: كَبْعَلَبَكَّ وبُصْرى وصَرْخَد وأعمالها، ثم سُلِّمت علجون والسَّلط، وتقدمتِ العساكرُ إلى صوب غَزَّة، وامتنع حِصْنا الكَرَك والشَّوْبك بالمغيث بن العادل بن الكامل، وكان قبل ذلك في حَبْس الصَّالح أيوب بن الكامل بحِصْن الشَّوبك، فأُطلق في أيام هذه الفتنة وتسلَّم الحِصْنين. وبلغني أنه طُلِبَ إلى مصر، فأبى وخاف مما جرى على ابنِ عمه المُعَظَّم بن الصّالح.

ثم سار الملك النَّاصر يوسف لأخذ الديار المصرية، ووصل سَلْخ شوال إلى العريش، وخرج إليه عسكر الترك الذين بمصر، فوقعت بينهم وقعة عظيمة بسموط بين الخَشَبي والعَبَّاسة انهزم منها العسكر المِصْري ونُهِبَ، ثم انعطف منهم طائفة، فانهزم العسكر الشَّامي؛ وذلك في ذي القعدة، وسَلِمَ السُّلْطان، وفَقَدَ جماعةً كثيرة مِنْ أقاربه وأمرائه بين قَتْلٍ وأَسْر وهَرَبٍ، ووصلوا إلينا في

أواخر الشهر. وممن قُتِلَ ضياء الدِّين القَيْمُري، وشمس الدِّين لؤلؤ[١]، وحسام الدِّين القيمري، وتاج الملوك، وأُسر المُعَظَّم والنصرة ابنا صلاح الدِّين، والصَّالح بن العادل، والأشرف بن المنصور بن أسد الدِّين، ثم خَلَصَ المأسورون، وفُقِدَ الصَّالح إسماعيل ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثمانٍ وأربعين وست مئة، ومولده سنة ثمانٍ وتسعين وخمس مئة[٢].

وفي تاسع عشر ذي القَعْدة توفي المجد الإسْفراييني[٣] قارئ دار الحديث الأشرفية من أوَّل ما فتحت وإلى الآن. وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر ابن الصَّفَّار، من أهل بيتٍ كبير بإسْفرايين، وكان المجد ـ رحمه الله ـ من أهل العِلْم والدِّين، مقيماً بخانقاه السُّمَيْساطي، سمع المُؤَيَّد الطُّوسي وغيره. حضرتُ جِنازته والصَّلاة عليه ظاهر باب النَّصْر، ومضوا به إلى مقابر الصُّوفية رحمه الله[٤]، رجعتُ أنا لأني كنتُ ناقهاً من مرضٍ، والحمدُ لله على العافية، وعلى كلِّ حال[٤].

وفي الثالث والعشرين من ذي القَعْدة توفي عندنا بالمدرسة العادلية بدمشق الشَّيخ الصَّالح العالم أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن الهادي، الضَّرير الأندلسي الإشبيلي رحمه الله، وكان ساكناً بالبيت الملاصق لباب السقاية، وكان رجلاً

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات ٦٤٨هـ)، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٤٠٧، السلوك للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٣٣٠، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٠، عقد الجمان (حوادث ٦٤٨هـ)، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢١.

(٢) للصالح إسماعيل بن العادل ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٤٨ هـ)، مفرج الكروب: ٣/ ٢٧٥، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٣٤ ـ ١٣٧، والوافي بالوفيات: ١٩/ ٢١٥، تحفة ذوي الألباب: ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٦، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٨ هـ)، شفاء القلوب: ٣٢٤ ـ ٣٢٥، الدارس: ١/ ٣١٦، شذرات الذهب: ٥/ ٢٤١، ترويح القلوب: ٦١، وقد سلفت أخباره في هذا الكتاب.

(٣) له ترجمة في سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٥٨ ـ وذكر وفاته سنة (٦٤٦هـ)، وهو خطأ، وقد ذكره الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤١٢ في وفيات (٦٤٨هـ) ـ وشذرات الذهب: ٥/ ٢٤٣.

(٤ ـ ٤) ما بينهما ليس في (ب).

صالحاً، تقياً، فاضلاً في علومٍ شتى، مقبلاً على شأنه، مشتغلاً بأوراده، رحمه الله، ودفن بمقبرة الصُّوفية، حَضَرْتُ دفنه والصَّلاة عليه، وكان ذلك بعد العَصْر من يوم الخميس.

وَرَدَ من الأندلس في سنة إحدى وعشرين وست مئة في البحر، وأسرته الفرنج، ثم نجَّاه الله منهم، ووصل إلى الدِّيار المِصْرية، وحَجَّ وجاور، وسافر إلى بلاد اليمن، ثم وَرَدَ مكة، ومنها إلى الشام، وسكن دمشق، وأقرأ بها القرآن، وحفظ «التنبيه» في مذهب الشَّافعي، وفهمه وعمل بعلمه، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين وست مئة ١٨٧

في خلافة المستعصم، وسُلْطان دمشق الملك النَّاصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب.

ففيها توفي سعيد بن عبد الله بن جَهِير القُرَشي صاحِبُنا في ربيع الأول.

ونجم الدِّين عثمان بن عمر بن عمر المَرَاغي الشَّيخ الصَّالح في ربيع الآخر، ودفنا بمقابر الصُّوفية، رحمهما الله تعالى.

وفيها مات الموفَّق الخُوَيِّي في خامس شعبان، ودفن بالجبل.

وفيها في الثاني والعشرين من ذي القَعْدة توفي الحسام أبو بكر الحموي الواعظ[1] بمسجد أبي اليُمْن، ودفن بالجبل، ـ وقبله مات أخوه البَدْر بن الحموي الواعظ ـ وبلغ الحُسام نيفاً وتسعين سنة.

وفي ذي الحجة مات الشيخُ شمسُ الدِّين محمد بن عبد الكافي الرَّبعي، وكان قد درَّس بالكلَّاسة والأمينية، وناب في القضاء مُدَّةً بدمشق وحِمْص، ودفن بالجبل، رحمه الله.

---

(١) هو أبو بكر بن سليمان بن علي بن سالم، له ترجمة في الوافي بالوفيات: ١٠/ ٢٣٤، والجواهر المضية: ٤/ ١٩.